عون الولي الحميد بشرح كتاب التوحيد
للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى

الشارح..
الشيخ عصام بن عبد المنعم المري حفظه الله

٥٦-باب ما جاء في اللّو

وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان».

فيه مسائل الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران.

الثانية: النهي الصريح عن قول: «لو» إذا أصابك شيء.

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع، مع الاستعانة بالله.

السادسة: النهي عن ضد ذلك، وهو العجز.

تمهيد:
هذا الباب- في الحقيقة- لا يستغني عن فهمه مسلم وسنورد نقلا عن ابن القيم إن شاء الله بعد ذلك في حديث الباب أنه لا يستغني عن هذا الباب مسلم ، لماذا؟
هذا الباب وما فيه من الفقه المسلم يحتاج إليه في كل يوم ، لما نواجهه في كل يوم من المشاكل أو من المصائب أو من الفتن أو من المحن والبلايا ، كل واحد لا شك يمر بشيء من هذا قل أو كثر ، على اختلافها وتنوعها ، لأن هذه الحياة مطبوعة على الكدر والتكدير وليست مطبوعة على الراحة (**لقد خلقنا الإنسان في كبد**) ،
كما قال ابن القيم: طبعت على كدر ، فلا يخلو الإنسان في يومه من محنة أو مشكلة أو مصيبة أو خسارة أو بلية أو نحو ذلك ، فما الموقف في ذلك؟ هذا هو موضوع هذا الباب.
بعض الناس يتحسر ويستسلم للهم والحزن فتضيع عليه الأوقات والساعات والأيام والليالي ، استسلاما للتحسر والحزن على ما فات ، وبعض الناس يحمل هم المستقبل ، فيعيش في أسى وهم متواصل لأنه يحمل هم ما سيأتي ، والناس بين هذين الأمرين ، ويدخل بين هؤلاء الصنف الأول والصنف والثاني يكثر استعمال كلمة لو ، التي هي محل البحث في هذا الباب ، هذه الكلمة من ناحية معناها من ناحية الفقه فيها متى تجوز ومتى لا تجوز ، هذا البحث في الحقيقة يتعلق بالقدر ، هو وبعض الأبحاث التي ستتلوه ، كمن يقول لو كنت فعلت كذا ما حصل كذا ، لو ما كنت سافرت ما حصل الحادث لو ما ركبت السيارة الفلانية لم أصبت ، ولو لم أمش في الطريق الفلاني لما حصل الحادث ، لو لم أركب مع فلان وركبت مع فلان ما حصلت هذه الجروح وهذه المصيبة ،
لو ما اشتغلت بالتجارة مع فلان لما ضاعت أموالي ، لو كنت أسرعت قليلا لكنت لحقت بالباص أو القطار أو السيارة ونحو ذلك ، لو ، لو ، تسمعها في اليوم مع ما لا تحصي من الناس ، تسمعها من الكبير والصغير ، تتكرر بصفة يومية ، فما موقف المسلم من هذه الكلمة وما يجوز منها وما لا يجوز ، ومتى نقولها ومتى لا يصح لنا أن نقولها ، هذا الشق الأول ،
والشق الثاني الذي سيأتي في الحديث ماذا يصنع المسلم وموقف الموحد من ناحية ما يصيبه في حياته وما يتكرر عليه بصفة يومية كيف يواجه هذه

المحن التي يواجهها كل يوم ، هذا الشق الثاني وسيأتي الكلام فيه في الحديث .

قوله: (باب ما جاء في اللو) ، لو: هذه حرف في اللغة معناها حرف امتناع لامتناع ، امتناع حصول شيء لشيء وهي بخلاف لولا ، لولا: حرف امتناع لوجود ،

لو حرف امتناع لامتناع ، امتناع حصول شيء لأن شيئا آخر لم يحصل ،

أما لولا امتناع لوجود شيء ، فالبحث هنا في لو ، دخلت عليها الألف واللام ، الألف واللام لا تدخل على الحروف وإنما الألف واللام تدخل على الأسماء لأنه روعي فيها اللفظ وإلا الألف واللام من علامات الاسمية ، كما قال ابن مالك:

بالجر والتنوين والندا وأل ومسند للاسم تمييز حصل

يعني هذه علامات الاسم ، ذكر خمس علامات ، الجر والتنوين والندا ، النداء ، وأل ، ومسند: أي الإسناد ، ومسند للاسم تمييز حصل ، فأل لا تدخل على الحروف وإنما تدخل على الأسماء ، وإنما دخلت هنا على هذا الحرف لأنه روعي فيه اللفظ ، يعني باب ما جاء في اللفظ ، أو في هذا اللفظ ،

نستطيع أن نقسم استعمالات لو إلى ثلاثة أقسام:

منها ما هو مشروع

ومنها ما هو ممنوع ومنها ما هو مباح ،

منها ما هو مشروع ومحمود ولا بأس به ، ومنها ما هو مذموم ومنها ما هو مباح ،

القسم المشروع إذا قال الإنسان لو على سبيل التمني ، تمني الخير هذا يكون في الماضي و في المستقبل ،

في المستقبل مثل ما جاء في الحديث من قول النبي الكريم عليه الصلاة والسلام «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي**» هذا بالنسبة للمستقبل ، تمني الخير ، وهذا في حجة الوداع عندما أمر النبي ﷺ الصحابة أن يحلوا فتأخروا لأنهم لم يسوقوا الهدي وقد ساقه النبي ﷺ وقال: لا أحل حتى أنحر الهدي ، فقال: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي**» فهذا تمني الخير ،

كذلك لو أن إنسانا تمنى أن يكون له مثل المال الذي عند أحد الأثرياء من أهل الخير ، فقال: لو أن عندي مالا مثل فلان الخيّر أو الذي يبذل المال في

سبيل الله لعملت مثل عمله ، ، فهما في الأجر سواء ، من أجل النية ، هذا تمني بالنسبة للمستقبل ،

وأما التمني بالنسبة للماضي كأن يقول إنسان: لو كنت حضرت الدرس مثلا لاستفدت كثيرا ، يقولها من باب تمني الخير فيما مضى ، هذا القسم الأول ،

القسم الثاني المذموم أو المحرم ، كمن يستعمل لو ، يعارض بها الشريعة أو الأمر الشرعي ، مثل أن يقول:

لو كانت عقوبة السارق غير القطع ربما يكون هذا أكثر زجرا وأسهل في التطبيق ، فهذا يستعمل لو في معارضة الشريعة ، وسيأتينا الآن في الآية التي في الباب نوع من هذا ، الثاني من القسم المذموم: أن يستعمل لو في معارضة القدر مثل قول المشركين **(لو شاء الله ما أشركنا)** وأيضا مثل ما معنا هنا **(لو أطاعونا ما قتلوا)** ، فهذا يعارض القدر لأن القتل أحد أسباب الموت **(فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)** سواء مات بالقتل أو مات على فراشه أو مات بالمرض ، إذا جاء موعد الموت لا يؤخر الإنسان أجله ، إذا هذا استعمال لو في معارضة القدر ،

الثالث: استعمال لو في الاحتجاج على المعصية ، (لو شاء الله ما أشركنا) ، كأن تقول لواحد لا يصلي تعال صل ، يقول لو أراد الله هدايتي لهداني ، فهذا يستعمل لو يحتج بها على المعصية ،

الرابع: استعمال لو من باب التندم والتحسر ، وهذا كثير جدا ، وهذا محرم ومذموم ولا يجوز ، استعمال لو من أجل التحسر على فوات مطلوب أو حصول مصيبة ، له أو عليه ، كما سبق ، "لو ما مشيت في هذا الطريق لما حصل الحادث ، لو كنت تعلمت في صغري المهنة الفلانية لما أصبح حالي على ما هو عليه الآن "، ونحو ذلك ، التحسر والضجر ، وهذه كلمة مهمة جدا ، التحسر والضجر والتأفف والاعتراض على القدر ، هذا أخطر ما في لو ، يعني أخطر ما في لو هذان الأمران ، الضجر والتأفف ، ثانيا: ضعف الإيمان بالقدر أو بالقضاء والقدر ، وهذا يعاني منه كثير من الناس .

الذي بعد ذلك استعمال لو في تمني الشر ،

أخذنا المثال الأول: استعمال لو في تمني الخير ، هذا الآن استعمال لو في تمني الشر ، كأن يكون الشخص فقير لا يستطيع أن يشرب مثلا المخدرات أو يأتي بالمعاصي التي يأتي بها الفاجر الغني فيقول لو أن عندي

مالا مثل فلان لاستبدلت بالسجائر والدخان الحشيش مثلا أو شربت المسكر الفلاني بدل البيرة يشرب الوسكي أو الشمبانيا أو نحو ذلك ، تمني الشر ، فهذان والعياذ بالله وزرهما سواء ، مع أن الثاني هذا تمنى فقط ، يتمنى يكون عنده مثل هذا ملايين أو مئات الألوف حتى يصنع مثل ما يصنع من الشر ، فهذان سواء في الوزر ، هذا القسم الثاني .

القسم الثالث المباح أو الذي لا بأس به استعمال لو في مجرد الإخبار ، مجرد الخبر ، سواء كان هذا فيما مضى أو فيما يستقبل ، كأن تقول: لو أتانا فلان لأكرمناه أو لأعطيناه مثل ما أعطيناك ، يعني مثلا نفترض واحد مثلا يوزع مثلا كتب أو مصاحف أو أشرطة فقيل له: لماذا لم تعط فلانا فقال لو أتانا فلان لأعطيناه ، هذا خبر يعني ليس فيه تمني ، ليست أمنية ، بل سيعطيه ويعطي أي واحد يأتي فيقول: لو أتانا فلان لأعطيناه هذا خبر أو مجرد الخبر ليس فيه لا تحسر ولا تضجر ولا تمني ولا غير ذلك ،

هذه الآن أقسام لو ، ثلاثة أقسام ، قسم مشروع وقسم ممنوع وقسم مباح ،

تستطيع بهذا أن تحكم بهذا على ما سيأتيك ، ومن المهم أن تعرف أن لو بحسب ما اقترنت به ، يعني كلمة لو كما سبق في التقسيم ليست ممنوعة لذاتها وإنما بحسب الحال ، هذه نقطة مهمة ، أن (لو) لو تعلق بها الضجر والتحسر والتأفف والاعتراض على القدر فهذه ممنوعة ، يعني إذا لم تفهم التقسيم السابق فعندك هذه العبارة ، إذا الإنسان شعر أنه يقول كلمة لو متحسرا متضجرا ونادما ومتأففا ومعترضا وإن لم يقل أنا معترض فهذه لو الممنوعة ،

وتستطيع بعد ذلك أن تحسبها في حياة الناس ، في بيتك أو محلك أو في مدرستك عد كم يتكلم من حولك بهذه الكلمة وماذا يقصدون بها ، هذا بالنسبة لما يتعلق بهذه الكلمة ، باب ما جاء في اللو ،

فينبغي على الإنسان أن يسلك السبب المشروع ، يمشي في تجارته يسير في طريقه يسافر إلى مصالحه ويدع النتائج لله سبحانه وتعالى ، ويعلم ويوقن بأن أفعال الرب جل وعلا كلها لحكمة عظيمة ، وأنت المسكين الغافل القاصر النظر والقاصر في التفكير وفي الرؤية ينبغي عليك ألا تزن أفعال الرب جل وعلا من جهتك فتشبهه بأفعال العباد كما يفعل مشبهة الأفعال وهم المعتزلة ، من صفات المعتزلة مشبهة ا\الأفعال ، يقيسون أفعال الرب جل وعلا على أفعال العبيد ، يقولون يجب على الله أن يفعل كذا لأن هذا هو الأصلح ويجب عليه ألا يفعل كذا لأن هذا ليس من الأصلح ، فيقيسون أفعال الكبير المتعال

الحكيم الخبير على أفعال الإنسان العاجز المسكين الذي لا يدري ما يحصل خلفه ،

إذا الإنسان يمشي لأعماله ويتخذ الأسباب وله بعد ذلك حالان أو حالتان: مصائب أو معايب ، يعني يقع في مصيبة خارجة عن إرادته ، كمن مشى بسيارته فغلبه النوم وانقلبت السيارة فتحطمت فهذه مصيبة ، فعليه هنا أن يسترجع أولا ، ويدعو الله أن يخلفه خيرا ويقول قدر الله وما شاء فعل ، هذه الحالة الأولى .

الحالة الثانية: أن يقع فيما يعاب ، المعايب ، يقع في مثلا معصية ابتلي بمعصية أصيب بمعصية فعليه أن يقلع ويستغفر ،

إذاً الحالتان: الحالة الأولى: يصبر على المصائب ،

الحالة الثانية: يستغفر من المعايب ،

قال الشيخ السعدي على هذه الكلمة ، يقول إن استعمال – لو- يقع على قسمين:

مذموم ومحمود ، فأما المذموم فكأن يقع منه أو عليه ، يقع من الشخص أو على الشخص أمر لا يحبه ، فيقول لو أني فعلت كذا لكان كذا ، فهذا من عمل الشيطان .

لأن فيه محذورين: أحدهما أنها تفتح عليه باب الندم والسخط والحزن الذي ينبغي عليه إغلاقه وليس له فيه نفع ،

الثاني: أن في ذلك سوء أدب مع الله جل وعلا وعلى قدره ، فإن الأمور كلها والحوادث دقيقها وجليلها بقضاء الله وقدره ،

وأنت لن تعدو أبدا القدر ولكن أنت مطالب بالأخذ بالأسباب ، فإذا وقع القدر فأنت بين أمرين:

إما أن تكون في الحالة الأولى حالة المصائب أو الحالة الثانية حالة المعايب ، فتصبر على المصائب وتستغفر من المعايب ، يقول: الأمور دقيقها وجليلها بقضاء الله وقدره وما وقع من الأمور فلا بد من وقوعه ولا يمكن رده ، فالواجب على المسلم أن يقول: الحمد لله قدر الله ما شاء فعل ، وأنا فعلت ما أستطيع إذا كنت بذلت السبب. تقول: قدر الله وما شاء فعل ، أو قَدَر الله ، كما سيأتي إن شاء الله في الحديث ،

يقول: فكان في قوله لو كان كذا أو لو فعلت كذا لكان كذا نوع اعتراض ،

ونوع ضعف إيمان بالقضاء والقدر ، فيها تسخط واعتراض ،

ثانيا: فيها ضعف إيمان ، يدل على ضعف إيمان الشخص بالقضاء والقدر الذي هو أحد أركان الإيمان الستة ، أحد أصول الدين الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره ،

ثم يقول الشيخ: ولا ريب أن هذين الأمرين المحذورين الذين هما الاعتراض وضعف الإيمان بالقضاء والقدر لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد إلا بتركهما .

يقول الشيخ: الشق الثاني : فكأن يقولها العبد تمنيا للخير ، كقوله ﷺ: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولأهللت بالعمرة**» وقوله «**لو صبر أخي موسى لقص الله علينا من نبئهما**» يعني في قصته مع الخضر ، يعني قصة الخضر مع موسى ذكر لنا منها ثلاثة مواقف ، لو كان موسى عليه السلام صبر مع الخضر لكنا سمعنا العجب ، هذا نص الحديث ، رحم الله أخي موسى لو صبر لقص الله علينا من نبئهما ، الشاهد هنا في استعمال لو ، هذا في تمني الخير ، هذا ليس فيه تسخط ولا ضجر ولا شيء ، وكذلك ذكر حديث الرجل الذي يتمنى الخير ، وكما أن لو إذا قالها الإنسان متمنيا للخير فهو محمود فإذا قالها متمنيا للشر فهو مذموم

فاستعمال لو يكون بحسب الحامل عليها ، إن حمل عليها الضجر والحزن وضعف الإيمان بالقدر أو تمني الشر كان مذموما ، وإن حمل عليها الرغبة في الخير والإرشاد والتعليم كان محمودا ،

ثم يذكر المؤلف عدة أدلة لهذا الباب ، الدليل الأول من سورة آل عمران في قوله تعالى عن المنافقين **(يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا)** الآيات التي قبلها منها **(ثم أنزل عليكم من بعد الغم)** هذه الآيات في بعض ما حصل للمسلمين في غزوة أحد **(ثم أنزل عليكم من بعد الغم)** ما حصل عليهم من انقضاض المشركين عليهم من الخلف لما ترك الرماة أمر النبي ﷺ بعدم النزول من الجبل فرأى الرماة إخوانهم يقتلون الكفار ويلتقطون الغنائم ويهرب المشركون فظنوا أن المعركة انتهت فنزلوا من الجبل فلما رأى المشركون نزولهم التفوا حول المسلمين من الخلف فحصروا من الأمام ومن الخلف فقتلوا منهم سبعين وحصلت فيه جراحات وحصل ما حصل ، فالله جل وعلا من رحمته أن من عليهم وأنزل عليهم من بعد هذا الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ، الطائفة هؤلاء المؤمنون ، النعاس نزل على المؤمنين ليهدئ من روعهم ومن قلقهم ومن فزعهم ، فالنعاس نزل على المؤمنين فقط ، أما المنافقون فظلوا على ما هم فيه من الهول والخوف والفزع

، قال تعالى **(نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم)** الذين هم المنافقون ، أهمتهم أنفسهم يخافون على أنفسهم ويحملون الهم مما سيحصل عليهم ، يخافون من القتل أو التشريد ونحو ذلك ، **(يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية)** وهذا الجزء من الآية المؤلف سيفرد له بابا مستقلا في سوء الظن بالله وحسن الظن ،

فهم ظنوا أن الإسلام سينهزم بمجرد هذه الحادثة في أحد وأن هذه نهاية المسلمين ، يعني المنافقون دخلوا إلى الإسلام بغرض ليستفيدوا من الغنائم ، يعني رأوا في بدر المغنم والغنائم وأسر المشركين وما حصل فيهم من القتل فظنوا أن هذا الأمر مستمر فلما حصل ما حصل في أحد ورأوا هذا الانهزام الذي هو في أول الأمر أو في وسطه ظنوا أن الله جل وعلا لم يصدق نبيه وعده ، ظنوا ظن الجاهلية وأن الدائرة تدور على المسلمين وأن هذه نهايتهم **(يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية)** والعياذ بالله ، فقالوا : **(هل لنا من الأمر من شيء)**

هل: هذه بمعنى ما ، يعني ليس لنا من الأمر من شيء ، لأن النبي ﷺ لم يسمع كلامهم ببقائهم في المدينة ، وخرج ، كما قال ابن سلول: إنما سمع محمد ﷺ كلام الصبيان وترك رأينا ، فهم يقولون هل لنا من الأمر من شيء ، يعني ليس بيدنا من الأمر شيء ، **(قل إن الأمر كله لله)** له الحكمة البالغة سبحانه وتعالى ، ثم قال: **(يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك)** من النفاق ، يظهرون الإيمان ويخفون الكفر والعياذ بالله ، ثم قال: **(يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا)** يقولون ، يعني المنافقين ، **(لو كان لنا)** لو: التي هي محل الكلام في هذا البحث ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ، ما هو الأمر؟ إما أن يكون المراد به الأمر الشرعي ، يعني في المشورة ترك مشورتهم أو استشارهم وترَكَ رأيهم ، أو الأمر القدري ، يعني لو كان لنا من الأمر القدري شيء ما قتلنا ههنا ، يعني ما قتل إخواننا ، لأن المتكلم لم يقتل وإنما الذي قتل غيره ، فهم يعترضون على الشرع ويعترضون على القدر ،

وهناك بعض المفسرين قال: **(لو كان لنا من الأمر شيء)** يعني لو كان لنا نصيب من النصر الذي وعدنا به والتمكين الذي قيل لنا وظننا أنه سيكون **(ما قتلنا ههنا)** يعني ما قتل بعضنا أو ما قتل إخواننا ، فرد الله جل وعلا عليهم بقوله **(قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم)** لو كنتم في بيوتكم ، لو كان الإنسان في بيته وجاءه الأجل في مكان معين ، لبرز: يعني خرج إلى البَراز ، والبَراز يطلق على المكان

الفسيح الواسع ، الذي كتب عليه القتل لبرز وخرج وبرزوا وخرجوا إلى مضاجعهم يعني مصارعهم التي سيموتون فيها ويحصل عليهم الموت سواء بالقتل أو بغيره ، لو قدر للإنسان أنه يموت في بلد أخرى وهو لم يخرج في حياته من بلده فستتيسر الأسباب له وسيجد أن الأسباب تُيسر له حتى يصل إلى البلد الفلاني الذي مقدر له أن يموت فيه في الساعة الفلانية بالدقيقة الفلانية ، وهذا كثير في حياة الناس وهو آية من آيات الله سبحانه وتعالى .

فالمنافقون من جهلهم قالوا **(لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا)** فرد الله عليهم **(قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل)** خرجوا إلى مضاجعهم يعني إلى مصارعهم **(وليبتلي الله ما في صدوركم)** يعني يختبر ما في صدوركم من الإخلاص والإيمان والنفاق ، **(وليمحص ما في قلوبكم)** يميز ما في قلوبكم **(والله عليم بذات الصدور)** ربنا جل وعلا عليم بذات الصدور وعليم بما في صدر كل إنسان لكنه جل وعلا اقتضت حكمته أن يظهر هذا العلم ويخرج هذا العلم للناس حتى يتم بمقتضاه الثواب والعقاب ، وإلا ربنا سبحانه وتعالى يعلم ما في نفس كل إنسان وفي صدر كل إنسان وقلبه لكن هل يتم الحساب والعقاب بما في العلم السابق ، لا ، يتم الحساب والعقاب بحسب ما يظهر للناس وينكشف من العمل ، المؤمن والمنافق والعمل الصالح والعمل السيء ، حتى لا يأتي الإنسان يقول يا رب أنا لم أعمل هذا العمل فكيف أحاسب عليه ، لا يقال له: قد علم الله أنك ستعمل هذا العمل أو تترك هذا الواجب ، لا ، فالله جل وعلا يقول: **(والله عليم بذات الصدور)** لكن يبتلي الإنسان ليظهر من عمله ما يستحق عليه الثواب والعقاب ، لأن الله جل وعلا لا يظلم أحدا ، **(ولا يظلم ربك أحدا)** سبحانه وتعالى ،

(الثالث: الخبر المحض ، كمن يخبر خبرا محضا ولا يقصد به لا شرا ولا خيرا مثل ما تقول لو جاء فلان لأكرمناه أو لو جاء فلان لأعطيناه سواء كان ذلك في الماضي أو في المستقبل ،) تترك مؤقتا.

استدل المؤلف على ما أراد بهذه الترجمة بآيتين وحديث ،

سبق الكلام على الآية الأولى من سورة آل عمران وهي في قصة المنافقين الذين قالوا **(لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا)** وتكلمنا على ما تيسر من تفسيرها ، وبقي أن نذكر فيها أنه أخرج ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم من حديث الزبير بن العوام أن هذه الآية نزلت في رجل من

المنافقين اسمه معتب بن قشير ، يقول الزبير بأنهم لما أخذهم النعاس في يوم أحد ، لطفا من الله جل وعلا وأمنة ، **(نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم)** يعني المنافقين ، فمن لطف الله أن هدأ من روعهم وأمنهم بهذا النعاس ، والنعاس غير النوم ، لأنه لو كان هذا نوما لأخذهم العدو ، لكن النعاس وهو الإغفاءة من مقدمات النوم، فهذا النعاس كان من لطف الله جل وعلا بهم فهدأ مما حصل لهم من الخوف وما حصل عليهم من بدايات انقضاض المشركين عليهم لما التفوا من وراء الجبل بعدما نزل الرماة ، فربنا جل وعلا من لطفه أن أنزل عليهم النعاس أمنة ، فقويت قلوبهم أما المنافقون فظلوا فيما هم فيه من الرعب والخوف كما قال تعالى(**أهمتهم أنفسهم**) خائفين ، يخافون على أنفسهم ولا يدرون ماذا يفعل بهم ، في تلك الأثناء قال هؤلاء ، أو قال قائلهم يقول الزبير بن العوام:

إنه سمع وهو في هذا النعاس كلمة معتب بن قشير يقول **(لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا)** فيقول إنني أسمعها كالحلم ، يعني كأنه يحلم لكنه سمع هذه الكلمة ، قال: فحفظتها ، حفظها وهو في هذه الحالة ، فرد الله جل وعلا عليهم **(قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم)** يعني خرجوا إلى مصارعهم ، فإنه إذا جاء الأجل سواء بالقتل أو بغير القتل لا يؤخر الإنسان ولا يقدم **(قل لو كنتم في بيوتكم لبرز)** يعني لخرج **(الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم)** هذا هو الدليل الأول ،

الدليل الثاني يقول المؤلف: وقوله تعالى **(الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا)** قال تعالى قبل ذلك **(وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله)** هذا في أحد جمع المشركين وجمع المسلمين ، **(فبإذن الله)** كل هذا لا يتم إلا بمشيئته وإذنه سبحانه وتعالى ، **(وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا)** وسبق الكلام على هذه المسألة أن هذا العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب لأن الله جل وعلا لا يؤاخذ الناس بما في علمه بدون أن يقع ، **(وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا)** يعني قال المؤمنون وقيل إن قائل هذا الكلام هو والد جابر ، يعني عبد الله بن حرام لما رجع عبد الله بن أبي بحوالي ثلث الجيش وقال مجاهد عن جابر إنها نزلت في ابن سلول ، وشيخ الإسلام ابن تيمية يقول أنه قال يعني ابن أبي: محمد ترك رأيي وأخذ برأي الصبيان ، لأنه كان من رأي ابن سلول ألا يخرجوا من المدينة ، فاستشار النبي ﷺ الصحابة وأشاروا بالخروج ،

فقال: يدع رأيي ويأخذ برأي الصبيان ، هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وهو هكذا لم أقف له على إسناد صحيح ولكن ساقه الشيخ ، وقصة المعتب التي ذكرتها ذكرها ابن أبي حاتم والطبري بإسناد حسن لأنها من طريق محمد بن إسحاق وهو معروف بتدليسه ولكن له شواهد فيحسن بها حديثه ، فقال ابن سلول بعدما رجع بالجيش الذي معه من المنافقين وممن مشى معهم وانخذل قال هذه الكلمة ، فقال له والد جابر على ما جاء في قوله تعالى **(وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا)** يعني إما أن تقاتلوا في سبيل الله ، لنصرة راية هذا الدين أو ادفعوا عن أهليكم وحريمكم ، يعني إذا لم يكن عندكم حمية لهذا الدين وللذب عن بيضة الإسلام والمسلمين فلا أقل من أن تدافعوا عن أهليكم وأولادكم والمدينة التي تسكنون فيها ، هذا معنى **(أو ادفعوا)** يعني ادفعوا عن حريمكم وأهلكم ، **(قالوا)** يعني قال المنافقون **(لو نعلم قتالا لاتبعناكم)** :

ذكر فيها المفسرون عدة أوجه ، الوجه الأول: لو نحسن القتال لكنا قاتلنا معكم ، لو نحسن قتالا ، مع أن هؤلاء معروفون بإحسان القتال ، لكن هذا نفاق ،

القول الثاني: لو نعلم أنه سيقع قتال لاتبعناكم لكننا نتوقع ألا يحصل قتال ،

القول الثالث: أن الذي سيحصل هو القتل لا القتال ، إذا هم خافوا من أن يقتلوا من جبنهم وخورهم وضعفهم ، هذه ثلاثة أوجه ذكرها المفسرون في بيان معنى هذه الكلمة **(لو نعلم قتالا لاتبعناكم)** قال تعالى **(هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان)** لأنهم قبل ذلك كانوا يظهرون الإيمان ويظهرون الإسلام وأنهم مع المؤمنين ، لكن في تلك الساعة أظهروا النفاق وأظهروا مشاقة المسلمين ، **(هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم)** ، في قلوبهم النفاق وبغض المسلمين وأنهم يتمنون أن تدور الدائرة على المسلمين وأن ينهزموا ، **(يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون)** ثم قال **(الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا)** الذين قالوا لإخوانهم ، هؤلاء هم المنافقون ، من إخوانهم؟ قيل: قالوا لإخوانهم من المنافقين ، القول الثاني: أو لإخوانهم من النسب ، لأنهم من المدينة وتجمعهم أنساب ، أو لإخوانهم لأجل إخوانهم الذين قتلوا ، سواء كانوا إخوانا في النسب أو لا ، **(لو أطاعونا ما قتلوا)** ، **(قالوا لإخوانهم وقعدوا)** عندنا الآن الواو ، الواو هنا إما أن تكون عاطفة وإما أن تكون حالية ، لو

كانت عاطفة يكون المعنى أنهم جمعوا بين الكلام المعارضة والقعود والجبن ، فجمعوا بين الأمرين ، جمعوا بين الجبن والمعارضة ، أو قالوا حال كونهم قاعدين عن القتال ، يعني قاعدين ويتكلمون فقط ، تركوا الخروج ويتكلمون وهم قاعدون جبناء يحسبون كل صيحة عليهم ، قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ، هذا الشاهد في استعمال لو ، أنهم أرادوا بها هنا المعارضة في القدر أو المعارضة في الشرع لأن الخروج تم بأمر النبي ﷺ وهو يوحى إليه ، فخروجهم كان بأمر الله ، بشرعه، فهم بهذا يعارضون أمر الله ويعارضون شرعه وأيضا يعارضون وينازعون القدر ، ومعترضون على القدر ، لو أطاعونا ما قتلوا ، لو أطاعونا في عدم الخروج ورجعوا معنا ، لكن هل هذه الشبهة صحيحة أو فيها أي أثر للصحة ، رد الله عليهم بقوله **(قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين)** يعني أنتم الآن تقولون لو أن هؤلاء الذين خرجوا أطاعونا ما حصل عليهم الموت ، هل تستطيعون أنتم أن تدفعوا عن أنفسكم الموت؟ هل أحد يستطيع أن يدفع عن نفسه الموت إذا جاء الموت، إذا جاء الموت يموت الإنسان بأي سبب من الأسباب سواء بالقتل أو بالمرض أو بحادث أو وهو على فراشه بدون شيء ،

ومشهور عند الجميع قول خالد بن الوليد يقول وهو من هو وليس في بدنه جزء من الأجزاء إلا وفيه طعنة رمح أو ضربة بسهم ومع ذلك يقول: ها أنذا أموت على فراشي كما تموت العير فلا نامت أعين الجبناء ، الذين يهربون من الموت ، وقد خاض معارك كثيرة جدا ، خالد بن الوليد ، والمعارك التي دخلها انتصر فيها وآخر أمره يموت على فراشه ، سبحان الله مع كل هذه الحروب والسيوف التي دارت حوله وفيه هو في الأخير يموت على فراشه ، يقول: فلا نامت أعين الجبناء ،

فرد الله جل وعلا عليهم بقوله **(قل فادؤروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين)** يعني أنتم من باب أولى إذا كنتم تقولون بأن هؤلاء لو أطاعوكم لنجوا فأنتم حاولوا أن تنجوا بأنفسكم من الموت وهذا لا يكون أبدا **(أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة)** ، هذا بالنسبة لما يتعلق بالدليل الثاني.

أما الدليل الثالث وهو ما رواه مسلم في صحيحه قال الشيخ «**وفي الصحيح**» يعني في صحيح مسلم رقم٢٦٦٤: « **عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «احرص على ما ينفعك**

واستعن بالله ولا تعجزن» » المؤلف أخذ من الحديث محل الشاهد والحديث أوله:

في صحيح مسلم: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك**» ،

يقول النووي رحمه الله تعالى في معنى «**المؤمن القوي**» ما معنى المؤمن القوي؟ هل المراد بها القوة الجسدية أم القوة الإيمانية؟ الراجح من كلام أهل العلم أن المراد بها والذي يدخل فيها دخولا أوليا القوة الإيمانية ، ثم يدخل فيها القوة البدنية إذا كانت تعين على القوة الإيمانية ،

فيفهم من كلام النووي أن المراد بالمؤمن القوي القويُ الإيمان ، لأن قوة البدن لوحدها إذا لم يكن هناك إيمان لا تفيد شيئا وإنما هي تضر ، يستعملها الإنسان في المعاصي وفي المنكرات ونحو ذلك، فالحديث المراد به المؤمن القوي في إيمانه ، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف لأن المؤمن القوي يترتب على إيمانه آثار كثيرة ، ينفع الله جل وعلا به أينما حل ، ينفع غيره ، يدعو إلى الله ، يعبد الله جل وعلا ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، يجاهد في سبيل الله ، إلى غير ذلك ، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف (وفي كل خير) ، ما معنى: في كل خير؟ يعني حتى في المؤمن الضعيف خير ، لماذا؟ لأن المؤمن الضعيف أيضا يصلي ويأتي بالأركان ، يأتي بالفرائض ففيه خير ،

يقول النووي: المراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة ،

يقول: فيكون صاحب هذا الوصف ، يعني المؤمن القوي ، أكثر إقداما على العدو في الجهاد ، لقوته الإيمانية يكون أسرع إقداما على العدو في الجهاد وأسرع خروجا إليه ، يلبي النداء ، أما المؤمن الضعيف يتباطؤ ويتأخر ، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لقوة إيمانه ،

يقول: والصبر على الأذى ، يعني أعظم صبرا على الأذى ، فذكر أشياء ثم قال: وأرغب في الصلاة والصيام وغير ذلك من العبادات ، إذا هو يفسر هنا قوة المؤمن بالمسارعة للطاعات والعبادات والخيرات ، وبهذا أيضا فسره عدد من أهل العلم .

وأضاف شيخنا ابن عثيمين رحمه الله تعالى العمل البدني أو أعمال البدن إذا كانت تعين على أعمال الإيمان ، وتعين على الخير ، فإن البدن هنا والصحة والقوة البدنية تنفع عندئذ وإلا فلا .

«**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله**» هنا مسألة نحتاج إليها في توحيد الصفات وهي إثبات المحبة لله جل وعلا ،

ثانيا: أن محبة الله جل وعلا للمؤمنين تتفاضل ، يعني يحب عبدا أكثر من الثاني ، يحب مؤمنا مسرعا إلى الخيرات قائما قانتا مصليا أكثر ممن هو أقل منه ، فهذا فيه إثبات المحبة وأن المحبة تتفاضل ، محبة الله جل وعلا للمؤمنين تتفاضل ، وهذا نستفيد منه أن الإنسان إذا عرف أن المحبة تتفاضل أنه يسارع إلى أن تكون محبة الله جل وعلا أفضل من غيره له ، وأعظم من غيره ببذل المزيد من الطاعات والمزيد من القربات ، إذا وجد من يصلي ركعتين ضحى يصلي هو أربعا ، إذا وجد واحد يقرأ ربعا من القرآن يقرأ هو جزءا لكي يكون أقرب إلى محبة الله جل وعلا ، إذا علم الإنسان هذه الفائدة يسارع بالخيرات ليحظى بمحبة الديان سبحانه وتعالى ،

«**وفي كل خير**» ففي الضعيف خير لأنه أيضا يصلي ويصوم ويقيم الفرائض وإن كان يقصر في النوافل أو الزيادات

قوله : «**احرص على ما ينفعك**» هذا أمر من الرسول الكريم ﷺ ، احرص على ما ينفعك ، ما معنى الحرص؟

الحرص بذل الجهد واستفراغ الوسع ، يعني العبد يبذل أقصى ما يستطيع ليحصل على ما ينفعه ، انظر لعظمة هذا الدين ،

يقول ابن القيم في هذا الحديث كما سيأتي إن شاء الله كلامه إن هذا الحديث لا يستغني عنه عبد مسلم ،

هذا الحديث ينفع الإنسان في دينه ودنياه أعظم النفع لأنه اشتمل على أسباب السعادة وأسباب التوفيق والنجاح في الدارين ، كما قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله تعالى في منظومته:

الدين جاء لسعادة البشر ولانتفاء الشر عنهم والضرر

يعني هذا الدين العظيم إنما جاء لإسعاد البشر ولينفي عنهم الضرر أو يقلله عنهم ، ينفيه كلية أو يقلله بقدر الإمكان وكما يقولون في القواعد جاء هذا الدين بتحقيق المصالح وتكميلها ودرء المفاسد وتقليلها ،

تحقيق المصالح ، الدين جاء لتحقيق مصالح الناس هذه مسألة ما يعرفها كثير من الناس ، يظن أعداء الإسلام أن هذا الدين هو سبب التأخر حتى بعض المسلمين يقولون هذا الكلام أن سبب التأخر بسبب الدين ، ولكن السبب

الحقيقي للتأخر أن المسلمين لم يعملوا بدينهم ولم يقوموا به حق القيام ، وهذا الحديث يصدق هذا .

فمن القواعد الكبرى في هذه الشريعة : أن هذه الشريعة جاءت بتحقيق المصالح وتكميلها ، مصالح الناس ، تحقق مصالح الناس تسعى لتحقيقها وتكميلها حتى تصل للكمال أو دون الكمال بحسب القدرة ، ودفع المفاسد عن الناس وتقليلها ، هذه من القواعد الكبرى في هذه الشريعة ، وهذا فيه رد على هؤلاء المخذلين الذين يقولون بأن الدين أفيون الشعوب وهو سبب تأخر الشعوب وسبب ما نحن فيه ، إلى غير ذلك ،

وسيظهر من شرح هذا الحديث بطلان هذا الكلام وأنه كلام ساقط وباطل وفاسد وأن النبي الكريم ﷺ ما ترك شيئا فيه مصلحة لنا في ديننا ودنيانا إلا بينه ، علمه من علمه وجهله من جهله .

فقوله : احرص على ما ينفعك ، الأمر هنا قال العلماء هو دائر بين الوجوب والاستحباب ، يعني يجب عليك أن تحرص على الشيء الذي فيه نفع لك أو مصلحة ، أو يستحب ، سواء كانت المصلحة هذه دينية أو دنيوية .

احرص على ما ينفعك ، سواء كان هذا في المعاش ، في أمور الدنيا أو في أمور المعاد ، وذلك ببذل الأسباب الموصلة إلى هذا الشيء النافع ، تبذل الأسباب وتدع العجز والتواني والتواكل والوهن والكسل والتأفف والخلود إلى الراحة لتحصّل وتنال ما ينفعك ، احرص على ما ينفعك في أمر دينك ودنياك ، لكن هناك أناس يحرصون على أشياء لا تنفعهم ،

فهاهنا شرط مهم : وهو أن الحرص يكون على الشيء النافع ، ولو كان هناك شيئٌ نافعا وشيئٌ أنفع فإنك تحرص على الشيء الأنفع ،

فقد يوجد من هو حريص جدا لكن على شيء ليس أنفع وليس بنافع ، بل شيء يضر ، هذا مذموم مخذول ، ويوجد إنسان يحرص على شيء ينفعه فعلا لكن على حساب الدين ، على حساب مثلا الصلاة يقول والله أنا أحرص على ما ينفعني ، فهو مشغول مع تجارته وبيعه وشراءه ، نقول له لا تدع الواجبات الشرعية والأوامر الشرعية ، فإذا كنت

ترى أن هذا الحرص قربة تتقرب بها إلى الله جل وعلا فينبغي ألا يكون هذا شاغلا لك عن أمور الدين والواجبات الشرعية أو بمعنى عام الوظائف الشرعية سواء كانت واجبات أو مستحبات ،

إذا هذه النقطة الأولى ، أولا: الحرص : بذل الجهد واستفراغ الوسع ،

ثانيا: أن يكون هذا الحرص على شيء نافع في الدين أو في الدنيا .

قوله : (واستعن بالله) ، لا يتم لك المقصود ولن تحصل على ما تريد مما تحب إلا بالاستعانة بالله جل وعلا وهذا مقام **(إياك نعبد وإياك نستعين)** التي كتب فيها ابن القيم كتابه مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، فأنت تعبد الله جل وعلا بما شرع وتطلب منه أن يعينك على هذا الذي أنت فيه لأنه إذا خذلك وتركك ونفسك لم ينفعك أحدا ، بل تذل وتخذل ، فلذلك ينبغي على العبد دائما أن تكون هذه المسألة منه على بال ، الاستعانة بالله ، (استعن بالله) سواء بلسان المقال تقول يا رب أعني ، ويا رب وفقني يا رب يسر لي أمري تمم لي الخير ، بلسان المقال أو بلسان الحال ،
لسان الحال بعملك وعبادتك وإقامتك الصلاة والمحافظة على الوظائف الشرعية ونحو ذلك ، وأيضا الإنسان لا يكون في كلامه وفي مظهره الكبر والعجب بعمله وأنه هو الذي يفعل كذا ويفهم كذا ويصنع كذا وهو الذي يستطيع أن يدخل للمكان الفلاني والمسألة الفلانية والتجارة الفلانية لا يستطيع ، لا ، هذا مصادم للاستعانة ،

إذا لا بد لك مع الحرص من هذا الأمر العظيم ؛ وهو الاستعانة بالله جل وعلا ، استعن بالله ، لتصل إلى مقام **(إياك نعبد وإياك نستعين)** ، احرص على ما ينفعك.

قال ابن القيم: حرصه على ما ينفعه عبادة لله ولا تتم إلا بمعونته ، بمعونة الله جل وعلا ، وهذا الكلام إذا كنا نقوله الآن باللسان فلا بد أن يأخذ دوره ويكون في أعماق الإنسان والإنسان يختبر نفسه وهو يعمل العمل هل هو مستغن عن الله أم مستغن بالله سبحانه وتعالى؟ ، مستعين بالله أم لا؟ ، يقف مع نفسه قبل بداية العمل وفي أثنائه وقبل تمامه .

إذا لا يتم المقصود ولا يحصل المقصود إلا بهذين الأمرين وإن شئت قلت بهذه الثلاثة ، لا تحصل على المقصود المرغوب المحبوب إلا بهذه الثلاثة ، في أمور الدين وفي أمور الدنيا .

قوله : (ولا تعجَزَن) أو ولا تعجِزن ، يجوز فيها الأمران ، والعجز في الحقيقة ينافي ما سبق ، واحد عاجز ، تقول له يا فلان افعل الشيء الفلاني يقول لك لا أقدر أفعله لا أستطيع ، فيخلد للعجز والوهن ووساوس الشيطان وتخذيل الشيطان ،

وقد كان نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله من العجز والكسل ، وهذه حال كثير من الناس ، يرضى بالدون مع أنه يستطيع أن يصل إلى درجات عظيمة ويرتقي إلى درجات عالية ، كما قال القائل:

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

فقوله : (ولا تعجزن)، هذا كلام الصادق المصدوق ﷺ الذي على كلامه النور ، لأنه وحي من الله جل وعلا ، يقول هذا الكلام لهذه الأمة ، كبيرها وصغيرها رجالها ونسائها لترقى وترتقي وتجتهد في كل أمورها ، لأن الدنيا مزرعة للآخرة ، أنت في هذه الدنيا تأتي بالعبادات تأتي بالطاعات وتجاهد وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتتصدق وتحج وتعتمر وتقرأ القرآن وتحظى بالدرجات وتدخر حسنات في هذه الدنيا ، فهذا التوجيه الكريم من هذا النبي الكريم ﷺ ، هذا الأمر الرابع ،

فالعجز مذموم عقلا وشرعا ، العجز مذموم في كل حال ، في أمور الدين وفي أمور الدنيا ، فيخلد للعجز ، والعجز هذا يولد عنده الجزع كما سيأتي الآن من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ،

قوله : (ولاتعجزن): فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة ، تعجِزن أو تعجَزن ،

قوله : (وإن أصابك شيء) ، يعني بعد هذا التعب وبعد هذا الجهد قد لا يحصل المقصود لأن الله جل وعلا قدر ألا يحصل وأفعاله جل وعلا وتقديره جل وعلا لحكمة عظيمة ، أنت قد تطلع على بعضها وقد لا تطلع على أكثرها .

كل شيء كتب قبل أن يخلق الله جل وعلا السماوات والأرض بخمسين ألف سنة .

وما قدره الله جل وعلا فإنما يقدره لحكمة ، فأفعاله جل وعلا كلها لحكمة بالغة قد يظهر بعضها وقد لا يظهر لنا الكثير منها ، فماذا تصنع عندئذ؟ دلك النبي ﷺ على ماذا تقول ،

قال: «**وإن أصابك شيء**» يعني بعد بذل الجهد «**فلا تقل**» هذا نهي ، لا تقل ، هذا النهي للتحريم ، إذا كان على وجه التسخط والجزع والمعارضة للقدر فهذا النهي للتحريم وإلا قد يكون لغير ذلك بحسب ما يقوم بقلبك أنت أو بقلب الشخص المتكلم ، الذي يقول كلمة لو ، لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، لماذا؟ لأن هذا الكلام لا ينفع الآن ، بعد وقوع المقدور وحصول ما قُدر فهذا الكلام لا ينفع ،

لذلك جاء في سنن ابن ماجة زيادة صحيحة في هذا الحديث: وإياك واللو ، يعني إياك وكلمة لو ، أن تخلد لهذه الكلمة من باب السخط والجزع ، فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا .

قوله : (ولكن قل: قدّر الله أو قدَر الله) ، يعني هذا مقدور الله جل وعلا ، هذا ما قدره ، أو قدّر على الفعل الماضي ، قدّر ، تقول: (قدّر الله وما شاء فعل) ، لا راد لمشيئته سبحانه وتعالى ، أو قدَر الله ، يعني هذا المقدور قدره الله جل وعلا ، وما شاء فعل ، فلا راد لأمره ولا لتقديره سبحانه وتعالى ،

أيضا في هذا وجوب الصبر عند المصائب ، يعني قوله: لو أصابك شيء فلا تقل ، هذا فيه دليل على وجوب الصبر ، فقد مدح الله جل وعلا الصابرين عند نزول المصائب **(الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوت من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)** وكذلك جاء في صحيح مسلم أن من أصيب بمصيبة فقال: اللهم اجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها أبدله الله جل وعلا خيرا منها ، كثير من الناس من هول المصيبة وشدتها ينسى هذا الدعاء ، اللهم اجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها ، وهذا موجود في حياة الناس ، تجد الإنسان يبتلى ببلاء وتمر عليه ساعات أو أيام تقول له يا فلان هل استرجعت وقلت إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم اجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها ، يقول: لا ،

وقد فعلت هذا أم سلمة وقالت هذا الدعاء قالت فأبدلني الله خيرا من أبي سلمة ، تزوجها النبي ﷺ .

قوله : (ولكن قل قدر الله وما شاء فعل) ، في هذه الجملة الرد على القدرية ، إثبات القدر والرد على القدرية و إثبات القدر وأن العبد لا يستقل بفعله ، ولا يخلق فعله ، بل أفعال العباد مخلوقة لله جل وعلا ، العباد وأفعالهم كلهم مخلوقون لله جل وعلا ، ففيه الرد على القدرية ،

ففي هذا الحديث الحرص على الأخذ بالأسباب ، يعني أنت رأيت الآن قبل قليل في أول الحديث الأخذ بالأسباب والحرص على الأخذ بالأسباب ، احرص على ما ينفعك ، هذا فيه الأخذ بالأسباب لكن النتائج تدعها لله جل وعلا ،

وإذا حصلت مصيبة فتسترجع وتصبر ، أو إذا حصل ما يعاب ، كمن ابتلي مثلا بمعصية ، زنا، فاحشة، شرب خمر أو مسكر أو دخان، أو معصية أخرى فعليه عندئذ أن يستغفر ويتوب ، فهاتان حالتان .

يقول: **«فإن لو تفتح عمل الشيطان»** ، هذا الشاهد في الحديث ، لو تفتح عمل الشيطان ، فلو استرسلت مع هذه الكلمة ، لو أنني ذهبت مع فلان لو ركبت السيارة الفلانية لو ذهبت من الشارع الفلاني ، لو ما كنت ذهبت المكان الفلاني لو ما عملت تجارة مع فلان ، عمل الشيطان ، وعمل الشيطان هذه

كلمة واسعة يدخل فيها أولا المعارضة للقدر والتشكيك والوسوسة وتؤدي هذه الكلمة إلى حالة من الفزع والهلع والحسرة والتندم على شيء مضى لا فائدة من التندم عليه ، يعني الإنسان قد يندم على شيء يحصل منه فائدة ،

يندم على أنه كان ماشيا في طريق الضلال فيتوب ، يندم على أنه كان ماشي مع أصحاب السوء فيتوب ويرجع ، يندم على أنه قضى وقتا طويلا من عمره بعيدا عن العلم الشرعي وعن العلم والتعلم فيستقبل أيامه بالنشاط في طلب العلم ، هذه تنفع ، لكن الندم على شيء فات ولا فائدة من التحسر عليه يزيد الإنسان هما وحزنا وحسرة وتأخرا .

فيدلنا الرسول الكريم ﷺ على هذا الأمر العظيم ليعيش الإنسان نشيطا في حياته عاملا مجدا مجتهدا ، ليعيش الإنسان في حياته مقبلا على عمله بهمة ونشاط وجدية وإنتاج ويدع التحسر على الماضي الذي لا ينفع ، أرأيتم لو أن أمة الإسلام عملوا بمقتضى هذا الحديث كيف سيكون حالهم في دينهم ودنياهم ، في معاشهم ومعادهم ، لا شك أن حالهم سيتغير كثيرا .

ونختصر هما بعض فوائد هذا الحديث كما ذكره ابن القيم:

أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده ، يعني سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في المعاش والمعاد ، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محمودا ، يعني يحترس مما لا ينتفع به كالمحرمات ونحوها ، كماله كله في مجموع هذين الأمرين ، أن يكون حريصا وأن يكون حرصه على ما ينتفع به .

وكماله كله في مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصا وأن يكون حرصه على ما ينتفع به ، فإن حرص على ما لا ينفعه أو فعل ما ينفعه بغير حرص ، كمن يقوم بعمله بفتور وكسل وليس هناك همة ولا نشاط سينتج إذاً عملا هزيلا ،

أو فعل ما ينفعه بغير حرص فاته من الكمال بحسب ما فاته من ذلك ، فالخير كله في الحرص على ما ينفع ، يعني في المعاش والمعاد ، ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه أمره أن يستعين به ، ليجتمع له مقام **(إياك نعبد وإياك نستعين)** عبادة واستعانة ، حرص على ما ينفع بنية صالحة ، مع استعانة بالله جل وعلا وطلب الإعانة والتوفيق منه سبحانه وتعالى .

ثم قال ابن القيم : فإن فاته ما لم يقدر له ، تعب وبذل الجهد والأسباب لكن فاته الشيء الذي يريده ، فاته النجاح فاته المكسب فاته الزواج مثلا ، فاتته الوظيفة مع بذل الأسباب فله حالتان : الحالة الأولى : حالة عجز ، وهي مفتاح عمل الشيطان ، يلقيه العجز إلى لو ، بقول لو أني فعلت كذا ،

يقول ابن القيم: ولا فائدة في لو هاهنا ، يقول هاهنا لأنها قد تقال في مواضع أخرى من لو أخرى ،

والبخاري عقد بابا كبيرا: باب ما يجوز من اللو ، وذكر فيه تسعة أحاديث ، ستة أحاديث في لو وثلاثة أحاديث في لولا :

لو كنت راجما أحدا بغير بينة لرجمت هذه المرأة ،

لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ،

لولا أن قومك حديثوا عهد بجاهلية لهدمت البيت ، إلى آخره

يقول: فيلقيه العجز إلى لو ولا فائدة في لو هاهنا ، بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن وذلك كله من عمل الشيطان فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا المفتاح وأمره بالحالة الثانية وهي النظر إلى القدر وملاحظته ، وأنه لو قدر له لم يفت ، لو كان مقدر له تأتيه هذه الوظيفة أو يأتيه هذا المال أو يأتيه هذا النجاح لم يفته أبدا ولو اجتمع له من بأقطارها ، ولم يغلبه عليه أحد ، فلم يبق له هاهنا أنفع من شهود القدر ومشيئة الرب النافذة ، مشيئة الرب جل وعلا النافذة التي لا ترد ، التي توجب وجود المقدور وإذا انتفت امتنع وجوده ، فلهذا قال: فإن غلبك أمر ، في بعض الروايات: فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا ولكن قل قدّر الله أو قدَرُ الله وما شاء فعل ، فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين: حالة حصول مطلوبه ، إذا حصل المطلوب يحمد الله جل وعلا على هذه النعمة ، وحالة فواته ، يصبر وينظر إلى القدر ، ويعرف أن هذا لم يتم إلا بقدر الله سبحانه وتعالى ، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبدا بل هو أشد شيء إليه ضرورة ، يعني هذا الحديث «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن**» لا يستغني عنه العبد في كل يوم من أيامه في كل ساعة من ساعاته في كل عمله من أعماله ، يقول ابن القيم: بل هو أشد شيء إليه ضرورة ،

ابن تيمية رحمه الله تعالى في مجموع الفتاوى في تفسير سورة الشورى في المجلد السادس عشر صفحة٣٨ يقول:

فلا خير في العجز ولا في الجزع ، فهاتان كلمتان عجز وجزع .

الجزع هو الهلع ، كما نجده في حال كثير من الناس ،

يقول شيخ الإسلام: حتى بعض المتدينين ، إذا ظلموا فلا هم ينتصرون ولا يصبرون ، يعني هو ليس بقادر أن ينتصر ولا هو يصبر ، بل يعجزون ويجزعون ، يعني هو عاجز وعنده الجزع والهلع .

وفي سنن أبي داود من رواية عوف بن مالك ، وهذا الحديث من رواية بقية بن الوليد عن بحير بن سعد ، وعلة هذا الحديث بقية وفيه رجل آخر اسمه سيف الشامي وثقه العجلي لكن له شواهد .

منها حديث جابر عند الدولابي ، وحديث أبي أمامة عند أبي الشيخ الأصبهاني في الأمثال : وفي رواية عوف بن مالك : (أن رجلين تحاكما إلى النبي ﷺ فقال المقضي عليه) ، يعني واحد قضي عليه بالحكم الشرعي ، فقال :(حسبنا الله ونعم الوكيل) ، يعني كأنه غير راضي عن هذا الحكم ، (فقال له النبي ﷺ: إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس) ، يعني عليك بالعقل ، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل ، يعني لا تقل حسبي الله ونعم الوكيل وأنت تركن إلى الدعة والكسل والتواني والخور ، لا ، اعمل ما عليك وابذل الجهد فإذا لم تستطع ولم توفق في الوصول إلى ما تريد فقل حسبي الله ونعم الوكيل ، إذا غلبك عدوك فقل حسبي الله ونعم الوكيل ،

وفي صحيح مسلم ذكر هذا الحديث «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله**»

ثم قال شيخ الإسلام: لا تعجز عن مأمور ولا تجزع من مقدور ، كلمة مهمة ، لا تعجز عن مأمور ، أوامر الشرع اجتهد في القيام بها ولا تقل لن أقدر .

لا تعجز عن أمر أمرك به الشرع ، اجتهد وستوفق وستعان ، استعن بالله ولا تعجز ، لا تعجز عن مأمور ولا تجزع من مقدور ، يعني إذا نزلت المصيبة لا يأخذك الجزع والهلع ولكن عليك بالصبر والاستعانة بالله جل وعلا ،

يقول شيخ الإسلام: ومن الناس من يجمع كلا الشرين ، يعني يترك المأمور ويجزع من المصائب ، **(إذا مسه الشر جزوعا) (وإذا مسه الخير منوعا. إلا المصلين)**

يقول شيخ الإسلام: ومن الناس من يجمع كلا الشرين فأمره النبي ﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله ، والأمر يقتضي الوجوب وإلا فالاستحباب ، وذلك لأن الإنسان بين أمرين: أمر أُمِر بفعله فعليه أن يفعله

ويحرص عليه ويستعين بالله ، هذا الكلام مهم جدا ، انظر إلى الأوامر ، استعن بالله واسلك أسباب إقامتها وفعلها .

يقول: وأمر أصيب به من غير فعله ، حصلت له مصيبة ، ابتلي بمرض أو ابتلي بكارثة أو بحرق أو بحادث ، وأمر أصيب به من غير فعله فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه ،

ويقول أيضا شيخ الإسلام في المجلد الحادي عشر من الفتاوى صفحة٧٧ بعد أن ذكر هذا الحديث: فأمره إذا أصابته المصائب أن ينظر إلى القدر ، إذا أصابتك المصيبة انظر إلى القدر ، قل: قدر الله وما شاء فعل ، ولا يتحسر على الماضي ، لأنه ليس هناك فائدة في التحسر على الماضي ، الماضي لن يرجع شيئا ، بل يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، يقول: فالنظر إلى القدر عند المصائب والاستغفار عند المعائب ، والمعائب: هي ما يعاب على الإنسان من ارتكاب المعاصي والفواحش يستغفر الإنسان منها ويتوب إلى الله جل وعلا منها .

إذا له حالتان: إذا كانت مصيبة يصبر ، وإذا كانت معصية ، أو شيئا يعاب منه ، فعليه أن يستغفر ، قال تعالى: **(ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير. لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم)** وقال تعالى **(ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه)**

قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم .

وله كلام آخر في المجلد الثامن صفحة٧٣ يقول فيه: فمن أعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد ناظرا إلى القدر ، يعني محتجا بالقدر ، تقول له: تعال صل يا فلان ، يقول: لو أراد الله أن أصلي لصليت ، فهذا أعرض عن الأمر والنهي واحتج بالقدر ،

وآخر قيل له يا فلان اترك الدخان أو اترك هذه المسكرات أو المخدرات يقول: لو ربنا أراد يهديني لهداني ، هذا ترك الأمر والنهي واحتج بالقدر .

يقول شيخ الإسلام: فمن أعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد ناظرا إلى القدر فقد ضل ، ومن طلب القيام بالأمر والنهي معرضا عن القدر فقد ضل وأن يستعين بالله جل وعلا وأن يعلم أنه لا حول له ولا قوة إلا بالله ، لا حول ولا قوة ، بل المؤمن كما قال تعالى **(إياك نعبد وإياك نستعين)** ، فنعبده اتباعا للأمر ونستعينه إيمانا بالقدر ،

نعبده اتباعا للأمر بعبادته ، ونستعينه إيمانا بالقدر ، وأنه لا يحدث شيئا في هذا الكون إلا بإذنه ومشيئته سبحانه وتعالى ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وفي الحديث الصحيح «**المؤمن القوي**» وذكر الحديث ، فأمرهم النبي ﷺ بشيئين: أن يحرص على ما ينفعه وهو امتثال الأمر وهو العبادة وهو طاعة الله ورسوله وأن يستعين بالله ، وهو يتضمن الإيمان بالقدر أنه لا حول ولا قوة إلا بالله وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

لكن ابن القيم يقول في ختام هذا البحث:

من فوائد هذا الحديث : فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد ابدا بل هو أشد شيء إليه ضرورة وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار والقيام والعبودية ظاهرا وباطنا في حالتي حطول المطلوب وعدمه وبالله التوفيق.

ومسائل الباب واضحة .